سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء الثالث عشر: سورة النحل (٧٣-٧٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نتدارس في جلستنا اليوم هذه السورة العظيمة **سورة النحل** التي كان يسمّيها السلف سورة النِّعَم؛ لما فيها من تعداد نعم الله عز وجل على خلقه التي تحملهم حملاً على الإيمان به سبحانه وتعالى بربوبيته وباستحقاقه للألوهية.

وفي السورة دلالة واضحة على أن العبادة هي شُكْرٌ لله، فإنّ العابد إنما يستظهر ما لله عز وجل مِن نعم عليه ويراها في نفسه وحوله، فيشكر الله عز وجل كما شرع له النبي صلى الله عليه وسلم الشكر.

إذن دين الله وعبادة الله شُكْر لله، وهذا المعنى قد تكرّر في كتاب الله كثيرًا.

وهذه السورة العظيمة بدأت بأعظم أنواع النعم لما بدأت بقوله تعالى: **{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}** فكانت هذه نعم عظيمة، نعمة أن يجمع الخلق فيحاسبهم، وأن يرشدهم قبل أن يحاسبهم، الحساب بنفسه نعمة؛ لأن العبد إذا علم أنه سيحاسَب، استقام في شأن إصلاح نفسه.

ثم أن هذا الإصلاح لم يكن موكولاً لآراء الناس ولا إلى لأهوائهم، إنما من نعمائه علينا أن أرسل الرسول الملكي على الرسول البشري بالروح التي إذا دخلت لروح الإنسان أحيت روحه **{بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ}** كلهم ينذرون أمراً واحداً **{أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}**.

ثمّ ذُكر أصناف من نعمائه على الخلق يطول ذكرها ومناقشتها بالتفصيل.. إلى أن وصلنا إلى آية ٦٥، بين مطلع السورة الذي عدّد الله فيه النعم إلى أن قال لنا في الآية ١٧: **{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}**، ثم أتى الكلام عن موقف الناس من النعم، إلى أن وصلنا إلى آية ٦٥ فأُعيد علينا مرة أخرى ذِكر النعم، كأن هذا عطف على ما مضى لأنه قال: **{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}** على أنه سبحانه وتعالى أنعم علينا بالنعم التي ذُكرت في صدر السورة إلى قوله تعالى: **{وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}** إلى قوله: **{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}**.

تأتي هذه الآيات من الآية ٦٥ بصورة مختلفة عما سبق فتبدأ كلها بلفظ الجلالة: **{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}**، ثم يأتي الكلام عن كل المشروبات (الماء، اللبن، العصير الذي يستخرج من ثمرات النخيل والأعناب، وذُكر فيه الخمر قبل أن تحرّم، ثم العسل من النحل) كل هذه ابتدأت بقوله: **{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ}**، **{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً}**، **{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ}**، **{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}**، كل هذه مشروبات ينتفع بها العبد.

ثم أتى قوله تعالى: **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ}**، ثم أتى قوله تعالى: **{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}**، ثم أتى قوله تعالى: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}**، هذه كلها أفعال الله، هكذا وصلنا آية ٧٢.

{وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ}

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ}

{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}.

هذه كلها أفعال لله، إلى أن وصلنا آية **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}** لازالت كلمة الرزق تُعاد علينا إما بالمطابقة مثل **{وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}**، و **{وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}** أو بالتضمّن في كل ما ذُكر الأرزاق.

ثم يقول تعالى: **{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}** ومن هنا يأتي النقاش، **{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ}** إذن هذه ثلاثة جمل في التوبيخ:

الجملة الأولى: **{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ}**

الجملة الثانية: **{وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}**

الجملة الثالثة: **{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا}**.

ثلاثة جمل في توبيخهم على تعلقهم بالباطل وكفرهم بالحق، والباطل كما هو واضح ومعلوم هو أن نعتقد أن غير الله ينفعنا ولو بذرة! أن نعتقد أن غير الله يملك لنا مصلحة ولو بمقدار ذرة. فهذا حقًّا الباطل، فكيف يؤمنون بالباطل الذي هو ضد الحق ويعتقدون أن غير الله ينفع؟!

والناس في هذه العقيدة الباطلة درجات، هناك الشرك المحض الذي لا يتخلص أصحابه من التفكير في غير الله، وهناك من هم أقل وأقل.. نسأل الله عز وجل أن يسلّم قلوبنا مِن أن يكون فيها باطل نؤمن به، ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعل الحقّ مستقرّ في قلوبنا واليقين.

الحق واضح في الجملة الثانية التي هي في حقّهم هم المخاطبين كانت كفرانًا، فهم بالباطل الذي هو ضدّ الحقّ يؤمنون، وبنعمة الله هم يكفرون، والحقيقة أنّ الله وحده المنعم وأنّ الله وحده هو المستحقّ أن نؤمن به، فلمّا قلبوا الحقيقة استحقّوا التوبيخ!

كيف يكفرون بنعمة الله؟! وكفران النعمة من المسائل المتعلّقة بحالات القلب التي فيها من الخفاء ما فيها، وتحتاج منّا كثير من المراجعة، وعلى كل حال في حقّ هؤلاء هم كانوا واضحين، يؤمنون بالباطل فينسبون له العطيّة وينتظرون منه العطاء، وبنعمة الله يكفرون بمعنى أنهم لا ينسبوها إلى الله. فكانت هاتين جملتي التوبيخ في الآية السابقة.

نبدأ بالآية موضوع الدراسة وهي معطوفة على الجملتين الماضيتين:

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} وهنا مزيد من التوبيخ لهم، كيف يؤمنون بغير الله –وهو الباطل– ويكفرون بنعمة الله وهو الحق سبحانه وتعالى الذي حقاً عبادته وشكره، وزاد الأمر بيانًا أنهم يوبّخون على شكر ما لا يستحقّ الشكر، والعبادة شكر، فكونهم عبدوا من لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة بمعنى شكروا من لا يستحقّ الشكر ولا بيده نعمة فهذا سفه، كيف يعبدونها وهي لا تملك من الرزق شيئًا! لاحتياجها، هي محتاجة ولا تستطيع رزقهم لعجزها، **{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا}**

هم مايملكون، يحتاجون، {مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ} لا يستطيعون رزقهم لعجزهم، فهذا كل معبود ومطلوب ومتعلق به غير الله، فالذي لا يملك الرزق لا يقدر على إعطائه، الذي يملك هو الذي يعطي، وإذا كانوا لا يملكون رزقاً من السماوات – من معاني ذلك المطر – ولا يملكون رزقاً من الأرض – من معاني ذلك الإنبات وإخراج خيراتها – ولا يستطيعون هذا الأمر، فمعنى ذلك أنهم لا يستحقون أن تلتفت لهم القلوب أو أن تطلب منهم أو تتعلق بهم.

فقال عز وجل مبيناً هذه الحال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} بمعنى أنكم لو علمتم كل هذه الحقائق السابقة وتبين لكم أن الله وحده المنفرد بالعطية، فهو وحده المنفرد بالألوهية.

فإذن مطلوب منكم أن لا تجعلوه سبحانه وتعالى مثل غيره، فلا تضربوا له الأمثال بمعنى لا تشبهوه وتجعلوا له مثيل، كيف تجعلون له مثيلًا وهو وحده المنفرد بكمال الصفات؟! فإنّ كل من طلب غير الله في حقيقة طلبه قد وصف غير الله بصفة من صفات الله، ولا يمكنه أن يطلب غير الله إلا ونفسه قد اعتقدت أن في هذا المطلوب شيء من صفة الله، لا يمكن أن يطلب غير الله وهو يعتقد هذا الاعتقاد، لا يمكن أن يأتي يتوسّل عند القبر وهو لا يعتقد أن صاحب القبر يسمعه وأن صاحب القبر بيده أن يحقق له مطلبه، لا يمكن أن يفعل هذا إلا بهذا الاعتقاد.

إذن كل من طلب من غير الله يعتقد في غير الله شيئًا من صفة الله، ليس شرطًا أن يعتقد كل صفات الله في هذا، لكن يكفي أن يعتقد أن فيه شيء من صفات الله.

معنى هذا أننا نُنهى عن تشبيه الله عز وجل بخلقه، نُنهى أن نجعل صفة من صفة كمال الله لأحد من خلقه، وهذا يلزمنا من ورائه الحذر الشديد في وصف من نعتقد أن لهم شأن أو من نحب، سواء كان الوصف سببه التعظيم أو سببه المحبة، فلابد أن نكون على حرص في وصف غير الله، فلا نرفعه رفعة نقارب فيها الكلام عن الله، وما غلا من غلا في دينه إلا لخطئه في هذه المسألة.

فمثلاً حُبّنا للنبي صلى الله عليه وسلم في حقيقته قُربة إلى الله، في حقيقته رضا بالله، في حقيقته قبول لاختيار الله، لكن لا يصل حُبّنا لنبينا صلى الله عليه وسلم إلى وصْف النبي بشيء من أوصاف الله، ولا نقترب إلى الحدود، الحدود هذه هي الكلمات التي تصف الله عز وجل فنستخدمها في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، كما وصف الله نبيّه نصفه، ولا نتعدّى ذلك.

واليوم مع التلاعب بالكلمات والتلاعب في الألفاظ ومحبة البروز وما يسمونه بالتغريدات هذا كله فتح للناس باب اختراع الكلام وتشقيقه، فأثر هذا التشقيق أنهم يأتون بأوصاف تكون على الخط الأحمر بمعنى أن الناظر لها يكاد يرى أن هذا وصف يخصّ الله، ثم يبدأ يدافع عن نفسه ويقول لم أقصد وكذا وكذا، فنقول {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} أبدا، وإذا كان هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم فهو في حق غيره من باب أولى، فإنك تسمع في كلام العُشّاق وخصوصا الحداثيين منهم كلمات بغضّ النظر عن قائلها نحن لا نحكم على الناس، الناس يحتاجون إقامة الحجة عليهم و الحكم عليهم، لكن مجردًا لو قرأتها تقول هذا قد كفر! لأنه وصف علاقته بينه وبين عشيقته بالعبادة! فيدخلون كلمة الصلاة في العلاقة بينهم! ويدخلون كلمة الأذان في العلاقة بينهم! ويدخلون كلمة الحج في العلاقة بينهم! فتجد صرف حتى العبادات، وهم يستعملونها خالية من معانيها

الشرعية ولا يفهمون أنه حتى مع خلوها من معناها الشرعية فهي كلمة خاصة بالشرعية وليس من حقهم أن يستعملوها في علاقاتهم.

والأسوأ من ذلك أن يأتوا إلى أوصاف وصف الله بها نفسه في كتابه فيتسللون إلى داخلها وينتزعون منها وصفًا ويضعه لعلاقته بمحبوبته إلى آخره..!

وهذا منتشر اليوم في الشعر الحداثي وهم في الحداثة يعتذرون لأنفسهم مائة ألف عذر في كونهم يستعملون هذه الأساليب، والله أعلم ليس لهم عذر في هذا أبدًا، ونعيد على أنفسنا وعليهم **{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}** لا تجعلوا الله بكمال صفاته وبجلاله ومجده وسلطانه عرضة لكلامكم، فتجعلوا له مثيل في كمال صفاته وفي العلاقة به، فيجعل قبلته محبوبته ويجعل كذا وكذا من الكلمات التي تفهم أنهم جعلوا لله الأمثال وضربوا لله الأمثال وخرجوا من تعظيم الله لتعظيم هؤلاء، وهي أحد البلايا التي قد ابتلينا بها في يومنا هذا وأهل هذه البلايا يتملّصون من هنا وهنا والله المستعان!

يقول الله عز وجل: **{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}**، المقصود أن هذا التعليل للنهي عن تشبيه الله عز وجل بهؤلاء، أن جهلهم بكمال صفات الله وعدم تعظيمهم لله يوقعهم في هذا وأسوء منه، فما تجرّأ متجرّئ على أن يشبّه غير الله بالله إلا لأنه لا يعلم عظمة الله، لا يعلم مجد الله، لا يعلم كمال الله، وإلا لو كان يعلم لا يمكن أن يتجرّأ.

فإنّ من عرف أن الله عز وجل له العظمة والسلطان وأنّ السماوات السبع في يمينه كخردة في يمين أحدكم! وأنّ له سبحانه وتعالى الملك التامّ على كلّ شيء، وأنّ أمْره كُن فيكون، وأنّ السماوات مليئة بالملائكة المسبّحة بحمده الخاضعة لأمره الذاكرة له، وأن حملة العرش العظام ما بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة خمسين ألف عام! فهذا الربّ العظيم الملك الكريم ذو العرش العظيم، كيف يُشبَّه به هؤلاء الضعفاء الذين لا يملكون من شأن نفسهم شيء؟! والملك كلّه لله، لكن لا يجرؤ على ذلك إلا من لا يعلم من هو الله، فالله نهاهم وعلّل النهي بأنه يعلم وهم لا يعلمون، وإذا كان هو يعلم وهم لا يعلمون المطلوب منهم أن يتعلّموا ويتعلّموا لكي يصلوا إلى معرفة عظمة الله، فيصلون إلى حقيقة منازلهم ومقامهم، فلا يمثّلون الله عز وجل بخلقه.

ثمّ لما نهى سبحانه وتعالى أن يشبّهوه بخلقه أو أن يشبّهوا الخلق به، مثّل لأحوال لو نظر الإنسان إليها عرف جريمة التسوية بين الخلق وبين الرب سبحانه وتعالى.

وهذه الأمثال التي ضربها الله عز وجل تأتي من باب القياس بالأولى، فتنظر إلى هذين المثلين بصورتهما الحقيقة، تنظر إلى من ضرب الله لهم مثل من الخلق وتقارن بينهم وتقول هذا عبد مملوك وهذا حرّ رزقه الله رزقاً حسنا فمن تفضل وكيف ترى صفة هذا وصفة هذا ولما تنتهي من مقارنة الخلق ببعضهم مع اختلاف صفاتهم تقول لنفسك من باب أولى أن يكون الرب الكامل لا يتساوى مع الخلق الناقصين.

هذا يسمّى القياس بالأولى، فبعد أن ننتهي من فهم المثل تمامًا ننتقل فنقول فمن باب أولى.

يقول الله عز وجل: **{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}**، بعدما نهانا أن نشبّه ضرب لنا مثل من أجل أن نتصوّر خطورة أن نمثّل الله بخلقه، ماهو هذا المثل؟

مثل لعبد مملوك لا يقدر على شيء.

نأتي إلى الجهة الأخرى: ومَن رزقناه منّا رزقًا حسنًا، ونتيجة أنه معه أرزاق –رزقه الله– نتيجة هذا فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا.

هذان شخصان أمامنا ندخل إلى تفاصيلهم: الأول مملوك لا يقدر على تصرّف في نفسه ولا يملك مالًا، ولما يقال لا يقدر على شيء يمكن توسّع الأمر فنجده هذا لا يقدر على شيء أبدًا، ليس فقط لا يقدر على الإنفاق إنّما لا يقدر على الكسب، لا يقدر على النفع، لا يقدر على الخدمة، لا يقدر، مملوك لا يقدر على شيء، فهو في هذه الحال غاية في عدم النفع، لا يقدر على شيء بمعنى أي شيء لا يقدر عليه.

ومعناه أنه لا ينفع، فهو لا يتصرّف في المال تصرّف الحرّيّة ولا يستطيع شيء، فنتصوّر عاجز عن كل ما يقدر عليه الناس فهو أقلّ درجة في العبيد فائدة، لا يقدر على شيء.

وانظر لهذا الذي لا يقدر على شيء وانظر أمامه الحرّ، حرّ ما صفته؟ معه رزق، ووُصف الرزق بأنه حسن، والرزق هنا الشيء المرزوق، وهذا الرزق حَسن يعني لا يشوبه قُبْح في نوعه، بمعنى لا يأتي وقت لا يجدون فيه هذا الرزق أو لا يفسد، فهو محفوظ.

الحاصل أن نفهم أنّ المقارنة بين شخصين:

شخص لا يملك أبدًا أيّ تصرّف وعاجز عن كلّ عمل، وشخص آخر حرّ وغنيّ يتصرّف كيف شاء، وليس فقط حرّ وغنيّ إنما أيضًا له صفات كمال، فهو ينفق من هذا الرزق إنفاقًا ينفعه وينفع غيره، فهو صاحب رزق حسن وأيضًا يتصرّف في رزقه بالإعطاء، فأصبح كمال وكمال، كمال بكونه أصبح رزق حسن، وكمال بكونه يتصرّف في رزقه بالإعطاء.

وهذا كله ضدّ نقص المملوك الذي لا يقدر على شيء لا من الإنفاق ولا ما ينفق منه، إذن معناه أنه يُنفَق عليه، هو لا يقدر على الإنفاق.

إذن هو عالة على غيره، ونلاحظ أن الفعل: (ينفق)، يعني لازال ينفق، بالمضارع يحصل فيه التجدّد والتكرار، ينفق ويزيد.

وأيضًا نلاحظ أنه حرّ لا أحد يأمره، فهو ينفق متى شاء.

و نلاحظ أنه سرًّا وجهرًا.

فهذا تعميم للإنفاق يدلّ على أنه مستقلّ في إنفاقه، ولا موانع تمنعه من الإنفاق، ولا أحد يتدخّل في إنفاقه، ويأتي هنا طلب القياس، يقال لك: فكّر بفطرتك السوية وعقلك السليم، هل يستوي هذا الذي لا يقدر على شيء أبدًا لا من المال ولا من الإنفاق ولا من النفع، بل هو يُنفَق عليه، هل يستوي هذا عبد مملوك لا يقدر على شيء ومن رُزق رزقًا حسنًا لا قُبْح فيه فهو ينفق منه كيف شاء ولا أحد يتدخّل في قراره، هل يستوون؟!

إذن لما ضرب الله مثل، الغرض من هذا المثل أن نصل إلى هذه النتيجة التي تدلّ عليها الفطرة؛ لأنّ الله عزّ وجلّ ركّب فينا فطرة لأنه لا يستوي عندنا الشيء المختلف، لا يستوي أبدًا المختلف، فإذا نظرنا إلى هؤلاء مباشرة ستخرج النتيجة أن هاتين الحالتين لا تستويان.

بمعنى صاحب الحالة الأولى قارنه بصاحب الحالة الثانية لا يمكن أن يكون استحسانك للأول مثل استحسانك للثاني أبدًا، ولذلك أتى الاستفهام هنا في الإنكار، أكيد النفس مباشرة ستنكر أن هذا يساوي هذا، لا في النفع ولا في القبول ولا في الاستحسان.

إذا كانت هذه نفوسنا فُطرت على هذا أنه لا يمكن أن نساوي بين هذا وهذا، ولا أن نستحسن هذا كما نستحسن هذا، فإنّ النفوس تميل إلى أن تستحسن هذا الذي يملك ويتصرّف متى شاء ومعه رزق حسن وفيه صفات الكمال، مادام لا يستوون إذن من باب أولى أن لا يُساوى العبد الفقير المملوك الذي في حقيقته لا يقدر على شيء حتى مما هو تحت ملكه، فإنه يظنّ أنّه يقدر لكن في حقيقته لا يقدر، فلا يمكن أن نكون نحن العبيد الذين نتّصف بهذه الصفة على الحقيقة أننا عبيد مملوكين لله، لا يمكن أن نساوي الربّ العظيم كامل الصفات الذي يملك كل شيء والذي يتصرّف في كلّ شيء وله الكمال المطلق.

إذن إذا لم يتساوى هذان العبدان –في حقّ الله لأن هذا عبد وهذا عبد حتى لو كان حر– مادام لا يتساوى عندنا هذا العبد مع هذا الحر كون هذا العبد فيه صفات نقص وهذا الحر فيه صفات كمال، فمن باب أولى أن لا يتساوى كل الخلق الذين هم عبيد مع الرب سبحانه وتعالى كامل الصفات، فإذا كان العبيد لما تختلف صفاتهم ويكون عبد أكمل من عبد نحن لا نقبل أن نساوي العبيد لله عز وجل المتّصفين جميعًا بأنهم عبيد لكن هذا حرّ وهذا عبد تحت إنسان وهذا لا يملك من المؤكد لأنه عبد وهذا يملك، وهذا يتصرف وهذا لا يتصرف، العبيد لا نقبل أن نساويهم ببعض، فكيف نساوي هؤلاء العبيد الذين في حقيقتهم الذين لا يملكون شيئًا بالله كامل الصفات! ولذا قال : **{الْحَمْدُ لِلَّهِ}**.

وهنا إظهار أنّ الفضل لله المستحقّ للثناء أن بيّن لنا هذه الحقيقة، وأنعم علينا هذه النعمة، فإن كمال صفاته موجب لاستحقاقه للعبودية، فإذا كان الأمر بهذا الظهور فالحمد لله الذي جعلنا عبيدًا له، فهو يستحقّ أن نكون عبيدًا له، ومن فخرنا أن نكون عبيدًا له، ونحمده أننا عبيدًا له، ونثني عليه الخير كله؛ لأننا نتمتّع بأن نكون عبيدًا له، وسيظهر هذا الأمر أكثر في المثال الثاني الذي ضُرب، سيظهر أكثر حاجتنا الماسة أن نكون عبيدًا لله نقف بين يدي الله ونطلب الله ونرجو الله، وتبقى حاجاتنا كلها عند باب الله، هذا من نعمائه الحمد لله.

ولما نحمده سبحانه وتعالى نذكّر نفسنا أنّ أكثر الناس لا يعلمون **{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**، لا يعلمون الحقّ، ولا يعلمون كمال الله، ولا يعلمون كيف أنّهم سيكونون في نعيم بأن يكونون عبيدًا لله، كيف أن مُستراح أهل الدنيا أن يقفوا بين يدي الصمد فيصمدون إليه في كل حاجاتهم ويضعون عنده كل متطلباتهم، فيصمدون فيرتاحون فيعيشون في حالة من الاستقرار، كلما نابتهم نائبة فزعوا إليه، وهو ذو الجلال والإكرام، وذو الطول والإنعام، وهو شديد المحال، له دعوة الحق، فهو وحده الذي يستحقّ، فالحمدلله الذي فتح بابه، والحمدلله أن وصفه قريب، وأنه مجيب، وأنه سميع، كلّ هذه من النعم التي يتمتّع بها من عرف الله.

ولذا جنّة الدنيا التوحيد! فإنّ من وحّد الله، فزع إليه في كل حال، فاستقرّ قلبه وتولّى شأنه ربّه، فكان في صلاح، أولئك القوم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم.

نأتي للمثل الثاني: **{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**

ونفكر بنفس الطريقة التي فكرنا بها في المثل السابق، نفكر في الرجلين الذين ضُربا لنا مثلًا.. هذان رجلان، نفكر فيهم وفي حالهم ونرى كيف يقول العقل والفطرة في حالهم، ثم نقول إذن من باب أولى.. وهنا اختلاف في وجه الشبه.

انظر للأول أبكم ولا يقدر على شيء، فلا يتكلّم فيعبّر عن مكنونه، ولا يقدر على شيء بمعنى أنه لا يعمل، إذن تعذّرت الفائدة منه في سائر أحواله، وأيضًا هو كلٌّ على مولاه يعني مع الخرس ومع أنه لا يقدر على شيء فهو كلّ، والكل بمعنى العاجز الذي هو عالة على الناس، وفي أصل كلمة الكلّ الثقل، عاجز فهو كالعالة على مولاه، والمولى أي الذي يلي أمره، عالة على كافله، بمعنى لا يدبّر أمْر نفسه، وأيضًا قليل الجدوى، **{أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ}** مولاه في عمل من أجل أن يعمل أو يأتي بخير لنفسه أو لغير، لا يأتي بخير، لا يهتدي إلى ما وُجِّه إليه، بمعنى أنه كلّما يحاول أن يخرجه من هذه الكلالة تراه لا ينفع ولا يصلح في ذلك. إذن هذا الرجل الأول.

نأتي للرجل الثاني: الرجل الثاني لما نقارنه بالأول نجد أنه يأمر بالعدل، إذن متكلّم وينفع في كلامه، عاقل حكيم عالم بالحقائق، ناصح للناس، ولذلك يأمرهم بالعدل، ولا يمكن أن يأمر بالعدل إلا وقد علمه وتبصّر به، والمقصود بالعدل هنا الحق والصواب، إذن هذه أول صفة فيه.

هذاك أبكم وهذا متكلم، لكن ليس أي متكلم، ليس فقط الكمال أنه متكلّم، لكن ننظر إلى كلامه نجده كلام خرج عن علم، إذن الأول أبكم لا يقدر على شيء، والثاني متكلّم قد علم ما يتكلّم به فأمر بالعدل.

نأتي للصفة الثانية: أنه **{عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** المقصود أنه على المحجة لا التواء فيها، فهو له سيرة حسنة صالح ينتفع الناس من كلامه وينتفع الناس من سيرته، فأينما توجّه في عمل كان له بركة، وكان في عمله هذا نفع لنفسه للناس، فتجده على صراط مستقيم نافعًا لنفسه نافعًا لغيره، يأمر بالعدل بكلامه ولما يأتي يعمل الأعمال تجده يسير فيها على الصراط المستقيم، فكلامه خير وعمله خير.

فنتصوّر الفرق الشاسع بين من لا يتكلّم ولا يعرف هدى ولا يستطيع إرشاد بل هو يحتاج إلى من يكفله ويحمله بل أنه متى ما أُرشد لشيء لا يُرشَد إليه، تصوّر هذا وحال من عنده علم وينصح ويأمر بالعدل وإذا عمل فإنّ عمله صالح ينتفع هو به وينتفع به غيره.

فإذا كانت عقولنا وفطرنا السويّة لا يمكن أن تساوي بين هذا وهذا في النفع ولا في الكمال ولا في القبول ولا في النظر بالاستحسان، فإذن من باب أولى أننا لو نظرنا إلى هذه الأصنام الجامدة التي لا تفقه شيئًا وهي محتاجة من يحرسها وينفض عنها الغبار والوسخ، وإذا وضعوا عليها العسل يتبركون بها أتى الذباب فأكل من هذا العسل! فهي تحتاج إلى من يخدمها! كَلٌّ على من يعبدها! هي تحتاج منه.

وكيف تقبل النفوس أن تعبد وتعظّم وتنكسر وتنذلّ لمن يحتاج؟! بكمة لو كلّمتها لا تكلّمك، ولا تنطق بخير، ولا تدلّك على خير، ولا تقدر على شيء، وكلّة على من يعبدها، يحملها من هنا إلى هنا.

وفي مقابل هذا ننظر إلى كمال صفات الله، فنرى كماله سبحانه وتعالى في ذاته و في صفاته وكيف أنه سبحانه وتعالى ينزل الملائكة من أمره على من يشاء من عباده فيأتي لنا الخير، ويأتينا هذا الكلام العظيم فنقرؤه وننتفع، ونرى أن ربنا على صراط

مستقيم، ونرى فضله علينا ونرى كيف دلنا هذا الصراط المستقيم، وكيف أنّ عليه سبحانه وتعالى قصْد السبيل، وكما في سورة هود **{إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**[١] فإنّ كل ما أمر به ربي يجعل الخلق على صراط مستقيم.

إذا كنا لا نساوي بين عبدين مع اشتراكهم في العبودية –المقصود أنهم عباد لله–، هذا رجل أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه، لا يمكن أن يتّجه القلب وقت الحاجة لمثل هذا أبدًا، وانظر كيف الثاني يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فمتى احتجت أتيت إلى هذا سألته استشرته ودلّك، أو نظرت لعمله فرأيته على الصراط المستقيم، سرت ورائه، أتتك الخيرات من ورائه، فكيف يمكن أن نترك هذا الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ونذهب إلى ذاك لا يتكلم ولا يقدر على شيء وهو بنفسه كلّ على مولاه! لا تقبل الفطرة السوية أن تأتي للأول وتترك الثاني، لا يمكن أن تقبل، فمن باب أولى أن هذه الفطرة السوية ترشدك أن تترك طلب من هو بنفسه علة، من هو بنفسه يحتاج من يرشده، من هو بنفسه لا يستطيع نفع نفسه، بل هو كلٌّ على مولاه، أينما وضعه لا يستطيع أن ينفع نفسه ولا يدفع عنها الضر، كلّ أينما توجهه لا يأتي بخير، فالنفس من الطبيعي أن لا تقبل مثل هذا أن يكون خير من الثاني، لا تقبل، ولا تقبل أن تقف عنده ولا تطلب منه ولا تسمعه ولا أي أمر من هذه الأمور التي يمكن أن يقول الإنسان فيها وجدت شيئا من الخير مع هذا الأبكم الذي لا يقدر على شيء، بل ليس هذا فقط، فوق هذا أنه كلٌّ على مولاه.

فإذن عُلِم من هذا أن الخلق في حقيقة حاجتهم يحتاجون لمن هو على كل شيء قدير، ولمن هو على الصراط المستقيم، ولمن يأمر بالعدل، فإذا فكّروا في هذا علموا أنّ الله عزّ وجلّ من رحمته بنا أن وصف لنا كماله وجلاله وأرشدنا إلى طاعته وبيّن لنا هذا الصراط المستقيم الذي بنفسه المتفكّر فيه يصل إلى أنّ هذا الصراط وحده الذي يجب أن نسير عليه.

ولما يسمع السامع كلام الله عزّ وجلّ يعلم أنّ هذا هو الحقّ وهذا هو العدل وبهذا يصل الخلق، فهنا تظهر نعماؤه علينا، كم أنعم الله عز وجل علينا بأن أرشدنا إلى التوحيد! كما أنعم علينا بأن بيّن لنا الطريق! كم أنعم علينا بأن هدانا الصراط المستقيم! بأن بيّن لنا الحق من الباطل! فكيف يمكن أن يساوي إنسان أحد مع الله؟! وقد أنعم علينا هذه النعم العظيمة التي من أهمها الدلالة على الطريق، أن نكون على الصراط المستقيم، أن نسمع الحق والعدل، ونحن في حقيقتنا كلنا عباد لا نملك من شأن أنفسنا شيء ولا نقدر على شيء، فكيف الذين لا يقدرون يقفون عند باب من يشتركون معهم في عدم القدرة؟!

وكيف الذين لا يستطيعون إرشاداً يقفون عند من يشبههم في ذلك؟!

إنما الجميع عليهم أن يتمتّعوا بالوقوف عند باب الله، ويحمدوا الله على كماله وجلاله، فإنّ من نعم الله على خلقه أن عرّفهم بنفسه وأن فتح لهم الباب وكان القريب المجيب سبحانه وتعالى.

ومن نعمه علينا أن نضع حاجتنا كلها عنده ونصمد إليه في كل حين، فالحمد لله رب العالمين!

---

[١] هود:٥٦

هذا ما تيسّر في هذه الآيات العظيمة، والحقيقة تحتاج مزيد بيان من جهة بيانها للتوحيد، نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من أهل التوحيد، من استقرّ في قلوبهم الحق وانطلقت ألسنتهم به، نعوذ بالله من الشرك كبيره وصغيره، الجليّ منه والخفيّ، ونسأله أن يجعل قلوبنا متعلّقة به شاكرة لنعمائه، شاعرة بجلالة وجماله سبحانه وتعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى اللقاء بفضل الله..